﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾ [ص: 45 - 47]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من القَصَصِ التَّفصيليِّ إلى الإجماليِّ

لَمّا انْتَهَى البيانُ القُرآنيُّ الحكيمُ من إيرادِ قِصَّةِ أيّوبَ على أوْجَزِ المسالكِ وأبيَنِها وأوْفَرِها بالعِظَةِ والعِبْرَةِ، عَقَّبَ عليها بالإشارةِ إلى مَجْموعَةٍ منْ قصَصِ الأنْبياءِ في هذهِ السّورَةِ، فَذَكَرَ فيها قصَصَ إبْراهيمَ وذُرِّيَّتِهِ منَ الأنْبياءِ، إرادَةً لمَزيدٍ منَ العِظَةِ والعِبْرَةِ، والتَّعْليمِ لَنا، والتَّخَلُّقِ بأخْلاقِهِم، والعَمَلِ بأعْمالِهِم، الَّتي مِنْ أجْلِها اسْتَحَقّوا ما أعَدَّ اللّهُ لَهُم ولِأمْثالِهِم في هذهِ الآياتِ مِنَ الثَّوابِ الجَزيلِ والنَّعيمِ المُقيمِ، وهيَ مَعْطوفَةٌ علَى بدايَةِ القَصَصِ في هذهِ السّورَةِ: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٧﴾ [ص: 17]، إلَى أنْ قالَ: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدَّارِ﴾: (دور) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إحْداقِ الشَّيْءِ بالشَّيْءِ مِنْ حَوالَيْهِ، يُقالُ دارَ يَدورُ دَوَرانًا، والدَّوّاريُّ: الدَّهْرُ؛ لأنَّهُ يَدورُ بالنّاسِ أحْوالًا[2]. والدّارُ المَنْزِلُ، اعْتِبارًا بدَوَرانِها الَّذي لَها بالحائِطِ، وقيل: دارَةٌ، وجَمْعُها ديارٌ، ثُمَّ تُسَمَّى البَلْدَةُ دارًا، والصَّقْعُ دارًا، والدُّنْيا كَما هيَ دارٌ، والدّارُ الدُّنْيا، والدّارُ الآخرةُ، إشارَةً إلَى المَقَرَّيْنِ في النَّشْأةِ الأولَى، والنَّشْأةِ الأُخْرَى. وقيلَ: دارُ الدُّنْيا، ودارُ

(1) الزُّحَيْلِيّ، التّفسير المنير: 23/ 214.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).

الآخرة[1]، والمرادُ بقَوْلِه ﷻ: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: بِحُبِّ الآخِرَةِ وذِكْرِها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

هذه الآياتُ القرآنيَّةُ تُرشِدُ النَّبيَّ ﷺ أنْ يَذْكُرَ لِقَوْمِهِ قِصَّةَ إبْراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقوبَ، أصْحابَ الأعْمالِ الطَّيِّبَةِ والبَصائِرِ النَيِّرَةِ، الَّذينَ اسْتَعْمَلَ اللّه تعالى حَواسَّهَم في طاعَتِه، فَأَلْسِنَتُهُم رَطْبَةٌ بِذِكْرِه، وجَوارِحُهُم مَشْغولَةٌ بِعِبادَتِه، فقدْ جَمَعَ اللّهُ لَهُم كَمالَ العَمَلِ لَهُ، مَعَ عَظيمِ مَعْرِفَتِه. ثُمَّ بَيَّنَ الذِّكْرُ الحكيمُ أنَّ اللّهَ قدْ أخْلَصَهُم لَهُ ونَقّاهُم مِنْ كُلِّ شَوْبٍ وكُدورَةٍ قدْ تَنالُ مِنْ مكانَتِهِم، وجَمَّلَهُم بِتِلْكَ الخَصْلَةِ الطَّيِّبَةِ والخَلَّةِ الحَسَنَةِ، وهيَ تَذَكُّرُهُم الدّارَ الآخِرَةَ، يَعْمَلونَ لَها ويَسْعَوْنَ مِنْ أجْلِها، وكانَ نَصيبُهُم مِنَ الدُّنْيا عَمَلَ الخَيرِ وخَيرَ العَمَلِ، الَّذي يَقْدُمونَ بِهِ على رَبِّهِم، ويُقْبِلونَ بِصُحْبَتِه إلَى مَولاهم. فهذه الآياتُ يَتَحَدَّثُ اللّه تَعالَى بِها عَنْ فَضائِلِ عِبادِهِ المُرْسَلينَ وأنْبيائِه العابِدينَ وعَنْ عَمَلِهِمُ الصّالِحِ وصَبْرِهِمْ وقوَّتِهِمْ في العِبادَةِ، وعنِ البَصيرَةِ النّافِذَةِ، فَإنَّهُمْ دَأبوا عَلَى الطّاعَةِ، وقَوَّيْناهُمْ عَلَى العَمَلِ المَرْضيِّ، فَأحْسَنوا وقَدَّموا خَيْرًا، وآتَيْناهُمُ البَصيرَةَ في العِلْمِ والفِقْهَ في الدّيْنِ، والعَمَلَ النّافِعَ في الدُّنْيا[2]؛ ولذا فقدْ عَقَّبَ على ذلكَ بِتَزْكِيةِ مَقامِهِم عندَ اللّهِ فَبَيَّنَ أنَّ هؤلاءِ الأنْبياءَ صلواتُ اللّهِ وسلامُهُ عليْهِم الَّذينَ اجْتَباهُم واخْتارَهُم هُمْ صَفْوَةُ خَلْقِهِ وخيارُ رُسُلِه وأفْضَلُ أنْبيائِه.

القوَّةُ في الحقِّ والإخلاصُ القلبيُّ طريقُ الاصطفاءِ الرّبّانيّ والاجتباءِ الإلهيّ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نَوْعُ الواوِ ودَلالَتُها:

عَطَفَ النَّظْمُ الحكيمُ قولَه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ

(1) الرّاغب، المفردات: (دار).

(2) الزُّحَيْلِيّ، التّفسير المنير: 23/ 214 - 215.

بيانُ ابتلاءاتِ النبيّين خيرُ معينٍ على تحمُّلِ مشاقِّ دعوةِ الكافرين

﴿وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ على ما سَبَقَ مِنْ قِصَّةِ أيّوبَ عليه السلام، وتحتمل أن تكونَ الآيةُ مَعْطوفةً على قَوْلِه تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: 17]، إلَى أنْ قال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾. ويَتَمَثَّلُ تناسُبُ العطفِ في أنَّه تعالى لَمّا ذَكَرَ مَنِ ابْتَلاهُ في بَدَنِه؛ ومالِه؛ ووَلَدِه؛ ثُمَّ جَعَلَ لَهُ الماءَ بَرْدًا؛ وسَلامًا؛ وعافيَةً؛ ونِظامًا؛ وشِفاءً وقِوامًا؛ عَطَفَ عَلَيْهِ مَنِ ابْتَلاهُ بالنّارِ؛ عَلى أيْدي الجَبابِرَةِ؛ فَجَعَلَها عَلَيْهِ بَرْدًا؛ وسَلامًا؛ باعْتِمادِهِ عَلَيْهِ؛ وصَبْرِهِ لَدَيْهِ؛ ونَجّاهُ مِن كَيْدِهِمْ؛ وجَعَلَ يَدَهُ بِمُفْرَدِهِ فَوْقَ أيْديهِمْ؛ ثُمَّ ابْتَلاهُ بالهِجْرَةِ لِوَطَنِهِ؛ وأهْلِهِ؛ وعَشيرَتِهِ؛ وسَكَنِهِ؛ ثُمَّ بِذَبْحِ ابْنِهِ؛ فَصَبَرَ عَلى ذَلِكَ كُلِّهِ؛ اعْتِمادًا عَلى فَضْلِ اللّهِ[1].

غَرَضُ الأمْرِ ودلالتُه:

الأمرُ بذكرِ ابتلاءاتِ المرسلينَ حضٌّ على الصَّبرِ وحثٌّ على الشُّكرِ

﴿وَٱذْكُرْ﴾ في قَوْلِ اللّهِ تعالى ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ فِعْلُ أمْرٍ، وفاعِلُهُ ضَميرٌ مُسْتَتِرٌ تَقْديرُهُ أنْتَ يَعودُ عَلَى النَّبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ، أيْ اُذْكُر يا مُحَمَّدُ صَبْرَهُمْ عَلَى ما أصابَهُم، واذْكُرْ ثَباتَهُم عَلَى عَقائِدِهِمْ وتَأسَّ بِهِمْ[2]. وقَدْ جاءَ فِعْلُ الأمْرِ هُنا عَلَى وجْهِ الحَقيقَةِ، أيْ أمْرًا حَقيقيًّا للامْتِثالِ، على أصلِه المُرادِ مِنهُ، وهوَ طَلَبُ الفِعْلِ على جِهَةِ الاسْتِعْلاءِ وعلَى جِهَةِ الحَقيقَةِ والإلْزامِ بِفِعْلِه، فَهوَ أمْرٌ بتبليغِ هذِه القَصصِ الشَّريفَةِ للناسِ عامةً وللمُسْلِمينَ خاصَّةً، وذلكَ للاعتبارِ والاتِّعاظِ والإرْشادِ بِما فيها من الأخلاقِ العاليَةِ والمناقبِ الشّافيَةِ، والأمرُ هَهُنا للنبيِّ ﷺ أصالةً ولأُمَّتِه تبعًا؛ فإنَّ ذِكْرَ تلك الابتلاءاتِ يُرادُ به الامتثالُ والاقتداءُ لمشابهاتها.

تَوْجيهُ قِراءاتِ الجَمْعِ والإفْرادِ:

وَرَدَ في لفظِ ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 395.
(2) الدَّرْويش، إعرابُ القرآنِ الكريمِ وبيانُه: 8/ 369.

قِـراءَةُ الإفْـرادِ محـمـولـةٌ على الـجـنـسِ، أمّـا قِـراءَةُ الجمعِ فعلى حقيقتها

﴿وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ قراءاتان، فَقَرَأَ ابْنُ كَثيرٍ: ﴿عَبۡدَنَا﴾ بِغَيْرِ أَلِفٍ عَلَى التَّوْحيدِ، وقَرَأَ الباقونَ بِالأَلِفِ عَلَى الجَمْعِ[1]. وقراءةُ الإفرادِ هيَ قِراءَةُ ابْنِ عَبّاسٍ، ووَجْهُها أنَّ قَوْلَهُ: (عَبْدَنا) تَشْريفٌ عَظيمٌ، فَوَجَبَ أنْ يَكونَ هَذا التَّشْريفُ مَخْصوصًا بِأعْظَمِ النّاسِ المَذْكورينَ في هَذِهِ الآيَةِ وهو إبْراهيمُ[2]، لِأنَّهُ أصْلُ مَن عُطِفَ عَلَيْهِ دينًا وأُبوَّةً؛ فَبَيَّنَ اللّهُ أساسَ عَطْفِهِ عَلَيْهِ في المَدْحِ بِالعُبوديَّةِ أيْضًا[3]، أو أن يكونَ المرادُ بالعبدِ الجنسَ[4].

وأمّا توجيهُ قراءَةِ الجمعِ: ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ فَلِأنَّ غَيْرَ إبْراهيمَ مِنَ الأنْبياءِ قَدْ أُجْرِيَ عَلَيْهِ هَذا الوَصْفُ فَجاءَ في عيسى ﷺ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ [الزُّخْرُف: 59] وفي أيّوبَ: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ وفي نوحٍ ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ۝٣﴾ [الإسراء: 3]. فَمَن قَرَأَ ﴿عَبۡدَنَا﴾ جَعَلَ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ وحْدَهُ عَطْفَ بَيانٍ لَهُ، ثُمَّ عَطَفَ ذُرِّيَّتَهُ عَلى لَفْظِ ﴿عَبۡدَنَا﴾، وهي التي تشمل إسْحاقَ ويَعْقوبَ، ومَن قَرَأَ ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ جَعَلَ ﴿إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ عَطْفَ بَيانٍ لِلَفْظِ ﴿عِبَٰدَنَآ﴾[5].

غَرَضُ إضافَةِ (عِبادِ) إلَى ضَميرِ الجَمْعِ:

إضافَةُ الأنبياءِ لـلّـهِ إضـافـةُ تَشْريفٍ وتنويهٍ ورِفْعَةُ شأنٍ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ أضافَ النَّظْمُ الحكيمُ كلمةَ (عِبادَ) إلى ضميرِ الجمعِ (نا) الدّالِ على العَظَمَةِ، وذلكَ لتأكيدِ نِسْبَةِ هؤلاءِ الأنبياءِ الكرامِ إلى جنابِ الحقِّ ﷻ، فَهُم المُبَلِّغونَ لِهَديهِ الجليلِ، الَّذينَ اصطفاهُم لِهَذِهِ المُهِمَّةِ الشَّريفَةِ، فَصيغَةُ الجمعِ في ضَميرِ الإضافَةِ (نا) الَّذي يُسَمَّى (ضَميرَ التَّعْظيمِ) - وَهوَ هُنا

(1) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 361.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 400.
(3) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 395.
(4) السّمين، الدُّر المَصُون: 9/ 382.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 400.

الصّادِرُ عَنْ رَبِّ العِزَّةِ ﷻ - يُسْتَعْمَلُ إذا كانَ المَقامُ مَقامَ تَعْظيمٍ[1]؛ فكانتِ الإضافَةُ إضافَةَ تَشْريفٍ وتَنْويهٍ ورِفْعَةَ شأنٍ في الدارين.

براعة ترتيبِ ذِكرِ ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾:

سِلْسِلَةٌ نَضيضَةٌ من أنبياءِ اللهِ الصابرينَ على الابتلاءِ والمِحَنِ في ذاتِ اللهِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابتدأ البيانُ القُرآنيُّ الحكيمُ بذِكرِ إبْراهيمَ ﷺ لأنَّهُ أصْلُ مَن عُطِفَ عَلَيْهِ؛ دينًا وأُبوَّةً؛ فَبَيَّنَ اللّه أساسَ عَطْفِهِ عَلَيْهِ في المَدْحِ بالعُبوديَّةِ؛ لِصَبْرِهِ عَلى دينِهِ في الغُرْبَةِ بَيْنَ عُبّادِ الأوْثانِ ومُباعَدي الإيمانِ؛ ثُمَّ أتْبَعَه بذِكْرِ ولَدِهِ إسْحاقَ ﷺ الَّذي اقْتَفا أثَرَهُ؛ وصَبَرَ صَبْرَهُ؛ وابْتُلِيَ بفَقْدِ بَصَرِه. ثم ذَكَرَ يعقوبَ ولَدَ إسحاقَ ﷺ، الّذي ابْتُلِيَ بَفَقْدِ ولَدِه نَبيِّ اللّهِ يوسفَ ﷺ بَهْجَةِ كَبِدِهِ؛ فَصَبَرَ أتَمَّ الصَّبْرِ في ذَلِكَ الضُّرِّ؛ وأبْلَغَ في الحَمْدِ والشُّكْرِ؛ فجاءَ هذا العِقْدُ النَّضيضُ مِنْ أنبياءِ اللّهِ الصّابرينَ مِصْداقًا لقولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: 21][2].

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ ﴿أُوْلِى﴾:

براعةُ انتقاءِ الألفاظِ والمباني لمناسبةِ الحقائق والمعاني

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ عَدَلَ النَّظْمُ الحكيمُ عن استِعْمالِ كلمةِ (أصحاب) ونحْوِها، إلى استعْمالِ كلمةِ ﴿أُوْلِى﴾، وذلكَ لأنَّ كلمةَ ﴿أُوْلِى﴾ جمْعٌ لا مُفْرَدَ لَهُ مِنْ لَفْظِه، وهي تَلزمُ الإضافَةَ إلَى اسْمٍ ظاهِرٍ[3]، ففيها منَ الاختصاصِ ما ليسَ في كَلِمَةِ (أصحاب) ونحوِها، فَهيَ تَدُلُّ على شِدَّةِ الاختصاصِ بالمُضافِ إليه، فكانَ التَّعبيرُ بها أشدَّ في الدَّلالَةِ علَى القوَّةِ في حقِّ اللّهِ وعِبادَتِه، والبصيرةِ في الفقهِ والدّينِ، اللَّذَيْنِ هُما مِنَ الضَّروراتِ اللّازِمَةِ لتَبْليغِ دَعْوَةِ اللّهِ تعالى لِخَلْقِه وهِدايَتِهم إلى طَريقِ الحقِّ والصوابِ.

(1) السّامرّائيّ، لمساتٌ بيانيّة، ص: 821.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 395.
(3) ابن هشام، أوضح المسالك: 3/ 94.

دلالَةُ الإضافَةِ:

الـجـمـعُ بـيـنَ الـقـوَّةِ والعلـمِ مـن مشـهـوراتِ أصحابِ النُّبوّات

أُضيف لفظُ ﴿أُوْلِي﴾ إلَى ﴿ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ للدّلالةِ على شِدَّةِ المُلازَمَةِ والاتِّصافِ بالقوَّةِ البالِغَةِ والبَصيرَةِ النّافِذَةِ والعقلِ الرّاجحِ في دينِ اللّهِ ودعوةِ خَلْقِه، فَهَذِه السِّماتُ الطَّيِّبَةُ لا تنْفَكُّ عنْ هؤلاءِ الأنبياءِ الأقوياءِ الحُكَماءِ، فَقُلوبُهم زَكيَّةٌ، وأفْئِدَتُهم ذَكيَّةٌ، وعُقولُهم حادَّةٌ، لا تَغيبُ عنْهم مُهِمَّةُ الدَّعْوَةِ إلى دينِ اللّهِ طَرْفَةَ عينٍ[1]؛ فقد عُرِفوا بالأيدي والأبْصارِ، حتّى اشْتُهِروا بها، وهذا دالٌّ على أنّهم جمعوا بينَ القوّة والعلمِ جمعًا تلازميًّا.

بلاغةُ التّعبير المجازيّ:

اجـتـمـاعُ المجاز والـكِـنـايَـةِ والـتـعـريـضِ في تركيبٍ واحد

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ يظهر أن المُرادَ بهذا التَّعبيرِ الدَّلالَةُ على القوَّةِ في الطّاعَةِ، والبَصيرَةِ في الدّينِ، فالأيْديْ مَجازٌ مُرْسَلٌ عَنِ القوَّةِ، والأبْصارُ جَمْعُ بَصَرٍ بِمَعْنى بَصيرَةٍ، وهو مَجازٌ أيْضًا لَكِنَّهُ مَشْهورٌ فيه، أوْ أولي الأعْمالِ الجَليلَةِ والعُلومِ الشَّريفَةِ، عَلى أنَّ ذِكْرَ الأيْدي مِن ذِكْرِ السَّبَبِ، وإرادَةِ المُسَبَّبِ، والأبْصارُ بِمَعْنى البَصائِرِ مَجازٌ عَمّا يَتَفَرَّعُ عَلَيْها مِنَ العُلومِ، كالأوَّلِ أيْضًا، وفي ذَلِكَ عَلى الوَجْهَيْنِ تَعْريضٌ بِالجَهَلَةِ البَطّالينَ أنَّهم كَفاقِدي الأيْدي والأبْصارِ، وتَوْبيخٌ عَلى تَرْكِهِمُ المُجاهَدَةَ والتَّأمُّلَ مَعَ تَمَكُّنِهِمْ مِنهُما، وقيلَ: الأيْدي النِّعَمُ، أيْ أولي النِّعَمِ الَّتي أسْداها اللّهُ تعالى إلَيْهِمْ مِنَ النُّبوَّةِ والمَكانَةِ، أوْ أولي النِّعَمِ والإحْساناتِ عَلى النّاسِ بِإرْشادِهِمْ وتَعْليمِهِمْ إيّاهُم، وفيهِ ما فيهِ[2]، فقولُه تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ كنايةٌ عن القوّة والعلمِ والمُكْنَةِ في الدّين.

غَرَضُ جَمْعِ ﴿ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾:

جاءتْ كَلِمتا ﴿ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ جَمْعًا، للدّلالَةِ على المُبالَغَةِ

(1) الزُّحَيْلِيّ، التّفسير المنير: 23/ 214 - 215.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 201.

في اتِّصافِ إبْراهيمَ وإسحاقَ ويَعْقوبَ صلواتُ اللّهِ وسلامُه عليهم بالقوَّةِ الشَّديدَةِ؛ والأعْمالِ السَّديدَةِ؛ لِأنَّ الأيْديَ أعْظَمُ آلاتِ ذَلِكَ؛ والمُرادُ بَجْمعِ الأبْصارِ تأكيدُ تَمَتُّعِهم بالحَواسِّ الظّاهِرَةِ؛ والباطِنَةِ؛ الَّتي هي حَقيقَةٌ بِأنْ تُذْكَرَ وتُمْدَحَ؛ لِقوَّةِ إدْراكِها؛ وعَظَمَةِ نُفوذِها؛ فيما هو جَديرٌ بِأنْ يُراعى مِن جَلالِ اللّهِ؛ ومُراقَبَتِهِ في الحَرَكاتِ؛ والسَّكَناتِ؛ سِرًّا وعَلَنًا؛ وعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالأبْصارِ؛ لِأنَّها أقْوى مَبادِئِهِ؛ ومَن لَمْ يَكُنْ مِثْلَهم كانَ مَسْلوبَ القوَّةِ؛ والعَقْلِ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَقْلٌ؛ فَكانَ عَدَمًا؛ فَهو أعْظَمُ تَوْبيخٍ لِمَن رَزَقَهُ اللّهُ قوَّةً وعَقْلًا؛ ثُمَّ لا يَصْرِفُهُ في عِبادَةِ اللهِ والمُجاهَدَةِ فيهِ سُبْحانَهُ[1]، والجمعُ لبيانِ تنوُّعِ القوى الّتي امْتَلَكوها، والعلوم الّتي اكْتَسَبوها.

بيانُ تنوُّعِ القِوى الّتي امْتَلَكوها، والعلوم الّتي اكْتَسَبوها

فائِدَةُ جُمْلَةِ التَّعْليلِ:

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ تعليلًا لوصْفِهم بأنَّهم ﴿أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾، فالجمْلَةُ عِلَّةٌ لِلْأمْرِ بِذِكْرِهِمْ؛ لِأنَّ ذِكْرَهم يُكْسِبُ الذّاكِرَ الاقْتِداءَ بِهِمْ في إخْلاصِهِمْ ورَجاءَ الفَوْزِ بِما فازوا بِهِ مِنَ الاصْطِفاءِ والأفْضَليَّةِ في الخَيْرِ[2]. فهي تَعْليلٌ لِما وُصِفوا بِهِ مِن شَرَفِ العُبوديَّةِ، وعُلوِّ الرُّتْبَةِ في العِلْمِ والعَمَلِ، أيْ: جَعَلْناهم خالِصينَ لَنا بِخَصْلَةٍ خالِصَةٍ عَظيمَةِ الشَّأْنِ[3]. إذْ لَمّا اشْتَدَّ تَشَوُّفُ السّامِعِ لِما اسْتَحَقّوا بِهِ هَذا الذِّكْرَ جاءتِ الجُمْلَةُ تأكيدًا لِمَحَبَّتِهِ تعالى لِمَدْحِهِمْ؛ ورَدًّا عَلى مَن يَنْسِبُ إلَيْهِمْ؛ أوْ إلى أحَدٍ مِنهم ما لا يَليقُ؛ كَما كَذَّبَهُ اليَهودُ فيما بَدَّلوهُ مِنَ التَّوْراةِ في حَقِّ إسْحاقَ في بَعْضِ المَواضِعِ[4]، ولبناءِ تعليلِ الاجتباءِ الإلهيِّ، فإنَّ معرفةَ عِلَلِ الاجْتباءِ، موصِلَةٌ إلى مواضعِ الرِّضا، ومواقعِ القبولِ.

معرفةُ عِلَلِ الاجْتباءِ، موصِلَةٌ إلى مواضعِ الرِّضا، ومواقعِ القَبولِ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 396.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 276.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 230.
(4) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.

فائِدَةُ التَّوكيدِ ودلالتُه:

التَّعريضُ بِمَنْ يَنْتَقِصُ مِنْ رُسُلِ اللهِ تعالى

جاءَ استعمالُ (إنَّ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ لتوكيدِ خُلوصِ هؤلاءِ الأنبياءِ الكرامِ مِنْ أيِّ شَيْنٍ أو عَيبٍ رُموا بِه. وتضَمَّنتْ (إنَّ) مَعنَى التَّعليلِ، فأغنتْ عن فاءِ التَّفْريعِ، كما هو الحال في قوله تعالى في سورَةِ يونُسَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦﴾ [الآية: 96][1]، فإنَّها توحي بالتَّعريضِ بمن يقولُ بخلافِ ذلك.

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾:

تَنْقِيَةُ جَنابِ الأنْبِياءِ المُخْلَصِينَ وتَطْهِيرُهُم مِن افْتِراءاتِ المُفْتَرِينَ

في قولِ اللّهِ تباركتْ آلاؤه: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ الحكيمُ التَّعبيرَ بالفعْلِ ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ دونَ غيْرِه من الأفعالِ، وذلكَ لأنَّ مادَّةَ الخاءِ واللّامِ والصّادِ أصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، يدلُّ على تَنْقِيَةِ الشَّيْءِ وتَهْذيبِه[2]، والخالِصُ كالصّافي، إلّا أنَّ الخالِصَ هوَ ما زالَ عَنْه شَوْبُه بَعدَ أنْ كانَ فيه، والصّافي قدْ يُقالُ لِما لا شَوْبَ فيه[3]. ففيه إشارةٌ إلى تَبْرِئَةِ كُلِّ نَبيٍّ من هؤلاءِ الأنبياءِ الكرامِ وتنْقِيَةِ جنابِ المُخْلَصينَ وتطْهيرِهم مِن افتراءاتِ اليَهودِ الَّذينَ لَمْ يَتَوَرَّعوا عنْ نِسْبَةِ أخْبارٍ شائِنَةٍ بحقِّهم.

نَوعُ الهَمْزَةِ ودَلالَتُها:

همزةُ التَّعْديَةِ في الفعلِ لإفادةِ معنًى إضافيٍّ كالصيرورة والجعل

الهَمْزَةُ في فعل: ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ لِلتَّعْدِيَةِ إلى المفعول به لفائدة معنى الصيرورة والجعل[4]، أي: جَعَلْناهم خالِصينَ، وفائدتُها هنا: اختصارُ الكلامِ في مقامِ الإيجازِ، فَبَدَلَ أنْ يُقالَ: صَيَّرنا الأنْبياءَ وجَعَلْناهم خالِصينَ، يقال: ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾، أيْ: طَهَّرْناهم مِن دَرَنِ النُّفوسِ فَصارَتْ نُفوسُهم نَقيَّةً مِنَ العُيوبِ العارِضَةِ لِلْبَشَرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 287.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلص).
(3) الرّاغب، المفردات: (خلص).
(4) رَضِيّ الدِّين، شرح الشَّافية: 1/ 86.

دَلالَةُ إسْنادِ فِعْلِ (أخْلَصَ) إلَى ضَميرِ العَظَمَةِ:

الإخلاصُ الحقُّ لا يَتَأتَّى إلا بتوفيقِ اللهِ سبحانه

أسْنَدَ النَّظْمُ الحكيمُ الفعلَ ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ إلى ضميرِ العظمةِ؛ وذلِكَ لِأنَّ الإخلاصَ للهِ أمْرٌ لا يَحْصُلُ لِلنَّفْسِ البَشَريَّةِ إلّا بِجَعْلٍ خاصٍّ مِنَ اللهِ تعالى وعِنايَةٍ لَدُنّيَّةٍ، بِحَيْثُ تُنْزَعُ مِنَ النَّفْسِ غَلَبَةُ الهَوى في كُلِّ حالٍ، وتُصْرَفُ النَّفْسُ إلى الخَيْرِ المَحْضِ فَلا تَبْقى في النَّفْسِ إلّا نَزَغاتٌ خَفيفَةٌ تُقْلِعُ النَّفْسُ عَنْها سَريعًا بِمُجَرَّدِ خُطورِها، "أيْ: أخْلَصْناهُم لَنا إخْلاصًا يَليقُ بِعَظَمَتِنا الَّتي لا تُدانيها عَظَمَةٌ"[1].

نَوْعُ الباءِ ودَلالَتُها:

أعظمُ الأسبابِ وأشرفُها الموصلُ إلى ذكرِ الحقِّ

الباءُ في كلمة ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ تحتمل أن تكونَ سَبَبيَّةً؛ إن كانت بمعنى جَعلناهُم خالصين، وفيها إشارَةٌ إلى سَبَبِ عِصْمَتِهِم، وعُبِّرَ عَنْ هَذا السَّبَبِ تَعْبيرًا مُجْمَلًا، تَنْبيهًا عَلى أنَّهُ أمْرٌ عَظيمٌ دَقيقٌ لا يُتَصَوَّرُ بِالكُنْهِ ولَكِنْ يُعْرَفُ بِالوَجْهِ، ولِذَلِكَ اسْتَحْضَرَ هَذا السَّبَبَ بِوَصْفٍ مُشْتَقٍّ مِن فِعْلِ ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ عَلى نَحْوِ قَوْلِ النَّبيِّ ﷺ لِمَن سَألَهُ عَنِ اقْتِناعِهِ مِن أكْلِ لَحْمِ الضَّبِّ: «إنّي تَحْضُرُني مِنَ اللهِ حاضِرَةٌ»[2]؛ أيْ: حاضِرَةٌ لا توصَفُ، ثُمَّ بُيِّنَتْ هَذِهِ الخالِصَةُ بِأقْصى ما تُعَبِّرُ عَنْهُ اللُّغَةُ، وهي أنَّها ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[3]، وتحتمل أن تكونَ للتّعديةِ إن كانت ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ بمعنى: خصصناهم[4].

دَلالَةُ ذِكْرِ لفظِ (خالِصَةٍ):

الاتِّساقُ الدّلاليُّ من مزايا التّرابطِ بين الألفاظِ

جاءَتْ كلمةُ (خالِصَةٍ) في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ خلافًا لمقتضى الظّاهرِ؛ فلَمْ يَقُلْ: إنّا أخْلَصْناهُم بِذِكْرَى الدّارِ، فعدلَ عن مقتضى الظّاهرِ إلى مقتضى الحال، وذلكَ لِما في ذكرِ هذهِ الكلمةِ (خالِصَةٍ) من دلالاتٍ كثيفةٍ مُتعانِقَةٍ، إذِ المرادُ أنَّ اللهَ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.
(2) رواه مالك في الموطّأ، كتاب الاستئذان، باب ما جاء في الضَّبِّ، حديث رقم: (1774).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 277.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 370.

تعالى أَخْلَصَهُمْ بأعْمالٍ؛ وأحْوالٍ؛ ومَقاماتٍ؛ وبَلايا؛ ومِحَنٍ؛ هي في مجموعِها سالِمَةٌ عَنْ شَوْبِ ما؛ فَصاروا بالصَّبْرِ عَلَيْها في غايَةِ الخُلوصِ[1]، ولتكونَ كلمةُ (خالصةٍ) صلةً بين الفعل ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ وما بعده، وتوطئةً لما بعدها من التّعريف بذكرى الدّار، لا سيّما على إعرابِ ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ بدلًا.

تَوْجيهُ القِراءاتِ القُرْآنيَّةِ:

وَرَدَتْ في كلمة ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ قراءتانِ، فَقَرَأَ المَدَنيّانِ: نافِعٌ وأبو جعْفَرٍ وهشام بخلف عنه ﴿بِخَالِصَةِ﴾ بِغَيْرِ تَنْوينٍ عَلَى الإضافَةِ، وقرأ الباقون بالتَّنْوينِ ﴿بِخَالِصَةٍ﴾[2]. فأمّا ﴿بِخَالِصَةِ﴾ بدونِ تَنْوينٍ فتكونُ مُضافَةً إلى ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾، والإضافَةُ بَيانيَّةٌ؛ لأنَّ ذِكْرى الدّارِ هي نَفْسُ الخالِصَةِ، فَكَأنَّهُ قيلَ: بِذِكْرى الدّارِ، ولَيْسَتْ من إضافَةِ الصِّفَةِ إلى المَوْصوفِ ولا من إضافَةِ المَصْدَرِ إلى مَفْعولِهِ ولا إلى فاعِلِهِ، وإنَّما ذَكَرَ لَفْظَ ﴿بِخَالِصَةِ﴾ ليَقَعَ إجْمالًا، ثُمَّ يُفَصَّلَ بالإضافَةِ للتَّنْبيهِ عَلى دِقَّةِ هَذا الخُلوصِ، أمّا التَّعْريفُ بالإضافَةِ فَلِأنَّها أقْصى طَريقٍ لِلتَّعْريفِ في هَذا المَقامِ[3]. وأمّا على قِراءَةِ الجُمْهورِ بِتَنْوينِ ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ فَيَكونُ ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ عَطْفَ بَيانٍ أوْ بَدَلًا مُطابِقًا. وغَرَضُ الإجْمالِ والتَّفْصيلِ ظاهِرٌ، وإبْدالُها مِنها مِن إبْدالِ الصِّفَةِ مِنَ المَوْصوفِ[4].

قراءةُ التّنوين تُفيدُ التّفصيل، وقراءةُ الإضافَةِ تفيدُ التَّعْريفَ والتَّنْبيهَ عَلى دِقَّةِ الخُلوصِ

دَلالَةُ إضافَةِ ﴿ذِكْرَى﴾ لِلَفْظِ ﴿ٱلدَّارِ﴾:

إضافَةُ ﴿ذِكْرَى﴾ إلى ﴿ٱلدَّارِ﴾ من إضافة المصدر إلى المفعولِ، أي: ذِكْرُهُمُ الدّارَ الآخرةَ، فهي إشارةٌ إلى جليلِ أثَرِ هؤلاءِ الأنبياءِ الكرامِ، فعَمَلُهم الَّذي استَحَقّوا به هذِه المكانَة العَلِيَّة هوَ تذكُّرُهم

كثرةُ ذِكْرِ الموقفِ العظيمِ يَشْرُفُ بـه الـذّاكـرُ ويَعْظُمُ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 361.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 277.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 278.

الدّارَ الآخرةَ، و"تَذْكيرُهُمُ النّاسَ بالآخِرَةِ، وتَرْغيبُهم إيّاهم فيها، وتَزْهيدُهم عَلى وجْهٍ خالِصٍ مِنَ الحُظوظِ النَّفْسانيَّةِ، كَما هو شَأْنُ الأنْبياءِ ﷺ. وقيلَ: المُرادُ بالدّارِ الدّارُ الدُّنْيا، وبِذِكْراها الثَّناءُ الجَميلُ، ولِسانُ الصِّدْقِ الَّذي لَيْسَ لِغَيْرِهِم، وحاصِلُ الآيَةِ: إنّا خَصَصْناهم بالذِّكْرِ الجَميلِ في الأعْقابِ"[1].

بَلاغَةُ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿ذِكْرَى﴾ دونَ مُرادِفاتِها:

اللفظُ القُرْآنيُّ جامعٌ للمعاني الكريمَةِ، فَمِنْ أيِّ زاويَةٍ نَظَرْتَ إليه بَهَرَتْكَ أنْوارُهُ

آثَرَ البيانُ القُرْآنيُّ استعمالَ لفظِ ﴿ذِكْرَى﴾؛ وذلك لأنَّ الذِّكْرَى اسْمٌ مَصْدَرٌ يَدُلُّ عَلى قوَّةِ المَعْنى، مِثْلُ الرُّجْعى والبُقْيا لِأنَّ زيادَةَ المَبْنى تَقْتَضي زيادَةَ المَعْنى[2]. والذِّكْرَى والتَّذْكِرَةُ مادَّتُهُما اللَّفْظيَّةُ واحِدَةٌ، وأصْلُهَما المَعْنَويُّ واحِدٌ، فَهُما تَتَطابَقانِ في بَعْضِ مَعانيهما، فَتأْتيانِ بِمَعْنَى اقْتِباسِ الدَّرْسِ والعِبْرَةِ. ولكنَّ (ذِكْرَى) تُسْتَعملُ في مقامِ العِبْرَةِ والمَوعِظَةِ على نحوٍ أكثرَ من استعْمالِها في التَّذْكيرِ الَّذي هو ضِدُّ النِّسْيانِ، كما أنَّ استعمالَ أبنيةِ المصادِرِ المُنْتَهيَةِ بألفِ التّأنيث أشَدُّ دلالةً على المُبالغةِ من غيرها، لِما فيها منَ الاتِّساعِ الناشِئِ عن الألفِ المقصورةِ في آخرها، فدَلَّ السّياقُ هَهُنا على أنَّ أنْبياءَ اللّهِ الكرامَ مَخْصُصونَ بِخُلوصِ تَذَكُّرِهم للآخرة، وتَذْكيرِ الخلقِ بها. "والمُرادُ إمّا أنَّهُمُ اسْتَغْرَقوا في ذِكْرى الدّارِ الآخِرَةِ وبَلَغوا في هَذا الذِّكْرِ إلى حَيْثُ نَسوا الدُّنْيا. أو حُصولُ الذِّكْرِ الجَليلِ الرَّفيعِ لَهم في الدّارِ الآخِرَةِ، أو أنَّهُ تعالى أبْقى لَهُمُ الذِّكْرَ الجَميلَ في الدُّنْيا وقَبِلَ دُعاءَهم في قَوْلِهِ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشُّعَراء: 84][3]. ولا يَبْعُدُ أيُّ مَعْنًى من هذه المعاني الجليلَةِ، فإنَّ منْ بلاغَةِ النَّظْمِ القُرْآنيِّ الشَّريفِ أنَّه يحْوي من المعاني ما لا حصْرَ لَه في وجْهٍ واحدٍ، كالأحْجارِ الكَريمَةِ، فَمِنْ أيِّ زاويَةٍ نَظَرْتَ إليه بَهَرَتْكَ أنْوارُهُ وآلاؤُهُ.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 201.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 277.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 400.

مَعْنَى تَعْريفِ لَفْظِ ﴿ٱلدَّارِ﴾:

الدّارُ المعهودةُ في قلوبِ الصّادقين هي الآخرةُ

جاءتْ كَلِمَةُ ﴿ٱلدَّارِ﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ مُعَرَّفَةً بالألفِ واللّامِ، وهيَ هُنا للعهدِ، "فَإِطْلاقُ الدّارِ لِلْإشْعارِ بِأنَّها الدّارُ في الحَقيقَةِ، وإنَّما الدُّنْيا مَعْبَرٌ"[1]. فَأشْعَرُ اللَّفظُ بحصرِ حَقيقَةِ الدّارِ فيها، فلا دارَ غيرُها على الحقيقةِ، إذْ هيَ دارُ المعادِ؛ ولأنَّها الدّارُ الَّتي لا يَسْتَحِقُّ غَيْرُها أنْ يُسَمّى دارًا بِوَجْهٍ[2]، فالدّارُ الَّتي هي مَحَلُّ عِنايَتِهِمْ هي الدّارُ الآخِرَةِ، لا الدّارُ الدُّنيا، قالَ النَّبيُّ ﷺ: «فَأقولُ ما لي ولِلدُّنْيا»[3]. وقيلَ: المُرادُ بِالدّارِ الدّارُ الدُّنْيا، وبِذِكْراها الثَّناءُ الجَميلُ، ولِسانُ الصِّدْقِ الَّذي لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ[4].

دَلالَةُ العَطْفِ بالواوِ:

التَّنْبيهُ على أسرارِ الاصطفاءِ ومفاتيحِ الاجْتباءِ

جاءتِ الواوُ عاطِفَةً في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ فَعَطَفتْ هذه الجُمْلَةَ على الجُمْلَةِ السّابِقَةِ بعْدَما دَلَّتْ على المَدْحِ البَليغِ، فَعَطَفَ عليْها ما يُلازِمُ الإخْلاصَ، فقالَ مُؤَكِّدًا لِمِثْلِ ما تَقَدَّمَ مِنَ التَّنْبيهِ على أنَّهُم مِمَّنْ يُغْتَبَطُ بِمَدْحِهِم، ورَدًّا على مَنْ رُبَمّا ظَنَّ خِلافَ ذَلِكَ بَكَثْرَةِ مصائِبِهِم في الدُّنْيا بِعَطْفِ اصْطِفائِهِم على العالَمينَ، وبيانِ خَيْريَّتِهِم[5]، ولأنَّه مِمّا يَبْعَثُ على ذِكْرِهِم بأنَّهُم اصْطافَهُمُ اللّهُ مِن بينِ خَلْقِه فَقَرَّبَهُم إليهِ وجَعَلَهُم أخْيارًا[6]، وقد ناسبَ ذلك كلَّه العطفُ بالواوِ، لخلوِّها عن معاني حروفِ العطفِ الأخرى.

غرضُ التَّوْكيدِ ودلالتُه:

أكَّدَ النَّظْمُ الحكيمُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 278.
(3) رواه أحمد في مسنده، مسند عبد الله بن عبّاس، حديث رقم: (2788).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 201.
(5) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 279.

إظهارُ الفضائلِ بتوكيدِها وإبرازُ المكارمِ بتعيينها

﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ خَيْريَّةَ هؤلاءِ الأنبياءِ الكِرامِ: إبراهيمَ وإسْحاقَ ويَعْقوبَ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليْهِم، بتأكيداتٍ ثلاثٍ هي: اسْتِعْمالُ الجُمْلَةِ الاسْميَّةِ المُؤَكِّدَةِ بنفسِها أوّلًا، والمُؤَكَّدَةِ بـ(إنَّ) ثانيًا[1]، والمُؤَكَّدَةِ بلامِ التَّوكيدِ ثالثًا في ﴿لَمِنَ﴾، وذلكَ لبيانِ فَضيلَةِ اصْطِفائِهِم وخَيْريَّتِهِم على النّاسِ أجْمَعينَ، ولِرَدّ أيِّ شُبْهَةٍ قَدْ تَطْرَأُ على ذِهْنِ أحَدٍ مِنَ النّاسِ بأنَّ ابْتِلاءَهُم دَليلٌ على نَقْصٍ في شَرَفِ الاصْطِفاءِ، أوْ غَمْزٌ في مقامِ الاخْتيارِ.

فائِدَةُ ذِكْرِ الظَّرْفِ ﴿عِندَنَا﴾:

تَمَكُّنُ أنبياءِ اللهِ في مقامِ المَدْحِ لَدَيْهِ

جاء ذكرُ الظّرفِ ﴿عِندَنَا﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾، دون الإخبارِ المجرَّدِ، فلَمْ يَقُلْ: (وَإنَّهُم لَمِنَ المُصْطَفَينَ الأخْيارِ)، وذلكَ لبيانِ مَكانَتِهم السّاميَةِ عِنْدَ اللهِ تباركتْ آلاؤُه، إذْ ذكرُ الظَّرْفِ في هذا السّياقِ يُفيدُ تَمَكُّنَهُم في مقامِ المَدْحِ لَدَيْهِ، فالمرادُ بالعِنْديَّةِ: المَكانَةُ[2]، وهذا أرسخُ في المدحِ، وأقوى في الحمدِ من مجرّدِ الإخبارِ.

نُكْتَةُ تَقْديمِ الظَّرْفِ ﴿عِندَنَا﴾:

عنايةُ اللهِ بالمصطفين بذكرِ مكانتِهم وعلوِّ اختيارِهم

جاءَ النَّظْمُ الكريمُ بتَقْديمِ الظَّرْفِ ﴿عِندَنَا﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ للاهْتِمامِ بِبَيانِ عَظيمِ مَكانَتِهم عِنْدَ اللهِ تعالى، وفي ذَلِكَ تَأْكيدٌ لأفْضَليَّتِهم وخَيْريَّتِهم واصْطِفائِهم، فأظْهرَ النَّظْمُ الكريمُ مكانةَ هؤلاءِ الكرامِ بكونِهم عندَ اللهِ تعالى مُصطَفَين، فالتَّقديم للعنايةِ والاهتمام[3].

غَرَضُ إضافَةِ الظَّرْفِ إلَى الضَّميرِ:

في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾

(1) المَراغيّ، علوم البلاغة، ص: 52، والجرجانيّ، دلائل الإعجاز، ص: 182.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 165.
(3) السَّامرّائيّ، أسرار البيان، ص: 21.

نيلُ شَرفِ الإضافةِ للهِ تعالى مرومٌ مطلوبٌ مقصود

أضافَ البيانُ القُرآنيُّ الظَّرفَ ﴿عِندَنَا﴾ إلى نونِ العَظَمَةِ، لِمَزيدِ التَّشريفِ والاجتباءِ من اللهِ تبارَكَتْ آلاؤُه، أي: بما لَنا مِنَ العَظَمَةِ والخِبْرَةِ بأصنافِ الخَلْقِ[1]، إذْ هوَ تعالى وحدَه العليمُ بأقدارِ النّاسِ، وهوَ وحْدَه المُطَّلِعُ على سَرائِرِهم.

نَوْعُ (مِنْ) ودلالَتُها:

ذكرُ بعضِ المصطَفَيْن تلميحٌ بأصلِهم وامتدادهم

(مِنْ) في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ للتَّبْعيضِ، أيْ مِنَ الّذين اتَّخذهمُ اللهُ صَفْوَةً فصفّاهم مِنَ الأدْناس الأخْيارِ الّذينَ اختارهم[2]، فهؤلاءِ الرُّسُلِ الكرامِ بَعْضُ عبادِ اللهِ المُصْطَفَينَ الأخيارِ، وفي ذلكَ دلالَةٌ على أنَّ اللهَ تباركتْ آلاؤه يصطفي من عبادِه من يَشاءُ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: 75]، فإنَّ الفضلَ غيرُ مَحصورٍ في هؤلاءِ الأنبياءِ الأطْهارِ، ولَكِنَّهم يأْتونَ في مُقَدِّمَةِ من اصْطَفاهم اللهُ منْ عبادِه، وهو تلميحٌ لأصلِ المصطفين، وتلويحٌ بامتدادِهم.

بَلاغَةُ اخْتيارِ مُفْرَدَةِ الاصْطِفاءِ:

الاصْطِفاءُ يحملُ معنى التّعليلِ، وهو سبيلُ الاقتداء

آثَرَ البيانُ القُرآنيُّ استعمالَ مفردة الاصطفاءِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾، وذلكَ لأنَّ أصلَ الصَّفاءِ خلوصُ الشيءِ من الشَّوبِ والكَدَرِ، فصَفاءُ السَّريرَةِ نَقاؤها، وصَفاءُ الذِّهْنِ وُضوحُه وجلاؤُه. ومِنْ ثَمَّ فالاصْطِفاءُ: تناولُ صَفْوِ الشيءِ، واصْطِفاءُ اللهِ بعضَ عباده قد يكونُ بإيجادِهِ تعالى إيّاه صافيًا عن الشَّوب الموجود في غيره[3]. فالاصْطِفاءِ في حَقِّ الرُّسُلِ هو انْتِقاءُ صَفْوَةِ الخَلْقِ، إذْ هُمُ الأصْفَى والأنْقَى والأكْمَلُ والأبعدُ عنِ النَّقْصِ

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.
(2) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 578.
(3) الرّاغب، المفردات: (صفو).

والرِّجْسِ وعنْ كُلِّ باطِلٍ وضَلالٍ، فآثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ هذه المفردةِ، لبيانِ أنَّ اللّه تعالى صفّاهم من كلِّ كَدَرٍ قبل أن يُرسِلَهم لبقيَّة خلقه، ولسائرِ عباده، ففيه معنى التّعليل، كما أنَّ فيه إشارةً إلى صراطِ الاقتداءِ.

غَرَضُ وصْفِ ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ بِلَفْظِ ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾:

ابتلاءُ الأنبياءِ بالمَصائِبِ دَليلُ الخيريَّةِ؛ لا دَليلُ عَكْسِهِ

في قَوْلِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ وصَفَ البيانُ القُرآنيُّ المصْطَفينَ بأنَّهُم أخيارٌ، رُغْمَ أنَّ المُصْطَفَى لا يَكونُ إلّا مِنَ الأخْيارِ، وذَلِكَ للدّلالَةِ على شِدَّةِ تَمَكُّنِ الوَصْفِ في المَوْصوفِ[1]؛ وأنَّ ابتلاءَ اللّهِ إيّاهم بالمَصائِبِ دَليلُ ذَلِكَ؛ لا دَليلُ عَكْسِهِ؛ كَما يَظُنُّهُ مَن طُمِسَ قَلْبُهُ[2].

بَلاغَةُ جَمْعِ الأخْيارِ بِهَذِهِ الصّيغَةِ:

لُزومُ الخيريَّةِ لجميعِ أفعالِ المصطَفَينَ وصفاتِهم

عَبَّرَ النَّظْمُ الحكيمُ بصيغَةِ الجَمْعِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾، دون الجمعِ على صيغةٍ أخرى، وذلك للدّلالةِ على أنَّ هؤلاءِ الأنبياءَ الكرامَ مِنَ الفاضِلينَ عَلَيْهِمْ في الخَيْرِ، وهو جَمْعُ (خَيْرٍ) مُقابِلِ (شَرٍّ) الَّذي هو أفْعَلُ تَفْضيلٍ في الأصْلِ، وكانَ قياسُ أفْعَلِ التَّفْضيلِ أنْ لا يُجْمَعَ عَلى (أفْعالٍ)، لَكِنَّهُ لِلُزومِ تَخْفيفِهِ حَتّى إنَّهُ لا يُقالُ: (أخْيَرُ) إلّا شُذوذًا، أوْ في ضَرورَةٍ، جُعِلَ كَأنَّهُ بِنْيَةٌ أصْليَّةٌ، وقيلَ: جَمْعُ (خَيِّرٍ) المُشَدَّدِ أوْ (خَيْرٍ) المُخَفَّفِ مِنهُ كَـ(أمْواتٍ) في جَمْعِ (مَيِّتٍ) بِالتَّشْديدِ، أوْ (مَيْتٍ) بِالتَّخْفيفِ[3]. واحْتَجَّ العُلَماءُ بِهَذِهِ الآيَةِ في إثْباتِ عِصْمَةِ الأنْبياءِ، قالوا لأنَّهُ تعالى حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِكَوْنِهِمْ أخْيارًا عَلى الإطْلاقِ، وهَذا يَعُمُّ حُصولَ الخَيْريَّةِ في جَميعِ الأفْعالِ والصِّفاتِ، بِدَليلِ صِحَّةِ الاسْتِثْناءِ وبِدَليلِ دَفْعِ الإجْمالِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 279.
(2) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 397.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 201.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 400.

بلاغَةُ الاحْتِباكِ:

الإخْـلاصُ يَلْـزَمُ مِنهُ الِاصْطِفاءُ

قَوْلُ اللهِ تباركتْ آلاؤه: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ بعدَ قوْلِه: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ مِنَ الِاحْتِباكِ: فَذِكْرُ ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾؛ أوَّلًا؛ دَليلٌ عَلى (اصْطَفَيْناهُمْ) ثانيًا؛ وذكرُ ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾ ثانيًا دَليلٌ عَلى (المُخْلَصينَ) أوَّلًا؛ وسِرُّ ذَلِكَ أنَّ الإخْلاصَ يَلْزَمُ مِنهُ الِاصْطِفاءُ؛ لا سيَّما إذا أسْنَدَهُ إلَيْه؛ بِخِلافِ العَكْسِ؛ بِدَليلِ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ [فاطر: 32][1].

(1) البِقاعِيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 16/ 398.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والأربعون،
سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 49 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-51-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 49 : المجلد التاسع والأربعون، سورة الصّافّات من الآية 145 إلى سورة الزُّمر الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-51-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1524626 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»